التضمين في القرآن الكريم

التضمين من المباحث البلاغية في اللغة العربية، وفي القرآن الكريم، وهو أيضا في الحديث الشريف.

ومعناه أن يؤدي فعلٌ أو ما في معناه في التعبير مؤدى فعل آخر أو في معناه، فيُعطى حكمه في التعدية واللزوم، وإن شئت فقل: هو أن يُشرب الفعل المذكور معنى فعل محذوف، دلّ عليه حرف الجر، وفائدته أن يؤدي السياق معنيين، معنى مأخوذ من الفعل الظاهر، ومعنى آخر مأخوذ من الفعل المقدر المناسب لحرف الجر.

مثال ذلك قوله تعالى {عينا يشرب بها عباد الله}، فإن الأصل في الفعل (شرب) أن يتعدى بحرف الجر (من)، فقال في غير القرآن (عينا يشرب منها)، فلما عدى الفعل وأسنده إلى حرف لا يتعدى به في العادة، عُلم بأن في السياق تقديرا.

وذهب أكثر الكوفيين إلى القول بتناوب الحروف، فيكون التقدير (عينا يشرب منها)، دون تقدير تضمين فعل آخر، على اعتبار أن حروف الجر تتناوب، وذهب أكثر البصريين كالخليل وسيبويه إلى أن في السياق تضمينا، حيث ضمّن الفعل الظاهر معنى فعل محذوف آخر يناسب حرف الجر، ففي الآية السابقة يكون التقدير (عينا يشرب ويروى بها).

والمذهب الثاني أصح؛ لأن كل حرف جر له معناه الخاص به، ولأن التجوز في الأفعال واقع وأسهل في التقدير؛ ولأن الحروف بابها لا ينصرف.

وللتضمين أمثلة كثيرة في القرآن الكريم، أوصلها بعضهم إلى أكثر من مائتين وخمسين موضعا، فمنه:

- قوله تعالى {ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين}، فهذه الآية حكاية عن نوح عليه السلام، و لم يقل (نصرناه على) على سبيل التضمين، فالفعل ضمن فعلا آخر وهو (نجيناه وخلصناه)، فكأنه قال: نصرناه ونجيناه من الذين كفروا.

  فإن قيل: لماذا لم يقل من البداية (ونجيناه من القوم الذين كفروا)؟ فالجواب: أن النجاة تتعلق بالناجي فقط، فقد ينجو وهو هارب، وهذه النجاة لا تتعرض للآخر بشيء، لكن لما أضاف النصر، دل ذلك على أنه لم ينج فقط، بل نجا وانتصر على العدو الكافر.

- قوله تعالى {ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا}، بينما قال في الآية الأخرى {وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا}، فعبر في الأولى بقوله {وارزقوهم فيها}، وفي الثانية {فارزقوهم منه}، وسبب ذلك والله أعلم أن الآية الأولى كانت تتحدث عن الولاية في مال الصغير والسفيه، فجعل فعدى الفعل (ارزقوهم) إلى حرف آخر وهو (فيها) على سبيل التضمين، كأنه يقول: ارزقوهم بتجارتكم فيها، كأنه يطلب أن يكون الرزق من نتاج المال وليس منه مباشرة، وفيه إشارة إلى أنه على الولي أن يعمل في مال السفيه والصغير بما لا يضره، بينما في الآية الأخرى، فيها حضور للقسمة، وليس فيها عمل، فجعل الرزق (من) المال، بإعطاء جزء منه.
- قوله تعالى {وهزي إليك بجذع النخلة} فكأنه يقول: وهزي وضمي إليك بجذع النخلة، فضمَّن الهز، فعل: الضم.
- قوله تعالى {عينا يشرب بها عباد الله} والعين يشرب منها لا بها، والمعنى: يشرب ويروى، أو يشرب ويأنس، أو يشرب ويُسر ويتلذذ.
- قوله تعالى {وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون}، فهنا تعدى الفعل (خلا) في الآية بحرف الجر (إلى)، وكان حقه أن يتعدى بالباء، أو ب(مع)، فيكون في الآية تضمين، والتقدير (خلا وسكن) أو (خلا ومال)، فهي ليست خلوة مجردة، بل هي صلة حميمة بين المنافقين ورؤسائهم الذي يوجهونهم إلى مسالك المكر والكيد.
- قوله تعالى {فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله}، والأصل في غير القرآن أن يقال (أنصاري مع الله)، ولهذا فسرها بعض العلماء بقولهم: {أنصاري إلى الله} يعني مع الله، ولكن الصواب تضمن الفعل، وليس تناوب الحروف، فيكون التقدير (أنصاري منضما إلى الله)، وهذا أبلغ من قوله (أنصاري مع الله)، لأنك لو قلت: من ينصرني مع فلان، لم يدل على أن فلاناً وحده ينصرك، ولا بد، بخلاف (إلى)، فإن نصرة ما دخلت عليه محققه واقعة، مجزوم بها، وأنتم منضمون إلى هذه النصرة، فهذا الأسلوب يشعر بأن نبي

الله عيسى -عليه الصلاة والسلام- منصور لا محالة بنصر الله الثابت له، وإن تخلى عنه البشر، كما أن فيه تشريفاً للأنصار إن هم انضموا إلى الله تعالى في نصرة عيسى -عليه السلام -، وفيه كذلك ترغيب في المسارعة إلى إضافة نصرتهم إلى نصرة الله تعالى.

- قوله تعالى {وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا}، والفعل أكل يتعدى بنفسه، كما تقول: (أكلت اللحم) أو بالواو ومع، كما تقول (أكلت اللحم مع الأرز)، لكنه هنا عداه ب(إلى)، والمعنى (تأكلوه وتضموه)، فصار المعنى لا تضموا أموالهم إلى أموالكم آكلين لها.

فإن قيل: قد حرم الله تعالى أكل مال اليتيم، كما قال تعالى {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا}، فلماذا حرمه في هذه الآية، ذاكرا الضم {إلى أموالكم}؟

فالجواب: أنهم إذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال، كان قبح أكل مال اليتيم أبلغ، وكان الذم أحق، ولهذا قال {إلى أموالكم}، فأنتم لكم مال، فلم تسطون على أموال اليتامى.

- ومنه قوله تعالى {ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم}، فعدى الفعل (أحسن) بحرف الجر (بي)، والأصل (أحسن إلى)، فيكون في الآية تضمينا، والتقدير (أحسن ولطف بي)، فإحسانه تعالى كان بلطف، واللطف هو التوصل إلى المقصود بالأسباب الخفية، وهو ما حصل في قصة يوسف عليه السلام، ولهذا قال في آخر الآية {إن ربي لطيف لما يشاء}
- ومنه قوله تعالى {نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا}، والأصل (يستمعونه)، أو (يستمعون إليه)، فضمن الاستماع معنى الاستهزاء، كأنه قال {يستمعون ويستهزئون به}، فأعلمه أن استماعهم ليس المراد تفهم المسموع، ففضح الله بهذه الآية سرهم.

- ومنه قوله تعالى {إذ قال لأبيه وقومه ما هٰذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون}، ويقال (عكف على)، فضمن الفعل (عكف) معنى الفعل (عبد)، فكأنه قال (عاكفون وعابدون لها)، أو (عاكفون ومقدسون).
- ومنه قوله تعالى {لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم}، والأصل أن يقال (خالف أمره)، فالفعل (خالف) يتعدى بنفسه، فيكون المعنى (يخالفون ويصدون) أو (يخالفون ويعرضون).
- ومنه قوله تعالى {وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين}، والفعل (تبدي) يتعدى لمفعوله مباشرة، فتقول (أبديت السر)، مثل قوله {وتخفي ما في نفسك ما الله مبديه}، وقوله {إن تبدوا خيرا أو تخفوه}، ففي هذه الآية ضمن (تبدي) معنى (تفشي وتصرح)، ليفيد الإظهار معنى الإخبار، لأن الخبر قد يقع سرا غير ظاهر.

ومثل التضمن هنا، التضمين في قوله تعالى {وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به}

- ومنه قوله تعالى {ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون}، والأصل أن يتعدى فعل (اكتال) إلى مفعول واحد، وهو المكيل، فيقال: اكتال طعاماً، مثل ابتاع، ويتعدى إلى ما زاد على المفعول بحرف الجر (من)، كما يتعدى بحرف الجر اللام فيقال: كال له.

غير أن الفعل (اكتال) تعدى في هذه الآية ب(على)، وكان الأصل أن يقال في غير القرآن (إذا اكتالوا من الناس)، ولكن أدت الآية معنى آخر بهذا التضمين، فإن أصحاب الكيل ما كانوا ليتمكنوا من هذا الصنيع الشنيع لولا وجود ما يعينهم عليه، وهو ما يمكن أن يقدر بالتسلط، أو التحامل، أو الحكم، وفرض الرأي.

فكأن معنى الآية (الذين إذا اكتالوا متسلطين مستعلين على الناس)، وحمل الآية على التضمين هو الذي أعطى هذه المعاني الوافرة وأعان على وصف الحالة بكل أبعادها.

- ومنه قوله تعالى {فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكفرين}، والذلة لغة: الخضوع عن قهر، وهي ضد العزة، ولهذا قال تعالى حكاية عن المنافقين {ليخرجن الأعز منها الأذل}، والفعل (ذل) يتعدى بنفسه ويتعدى باللام، لكنه في هذه الآية تعدى ب(على)، فضمن الفعل (ذل) فعل (عطف)، أو (حنا) من الحنو، أو (أشفق)، وكلها أفعال تتعدى بـــ(على) وبينها وبين الذل تناسب، ففيها كلها لين وتسامح، لكنها ثمرة محبة وتواضع، لا بسبب قهر وغلبة.

فهؤلاء المؤمنون يشفقون على إخوانهم، ويعطفون عليهم، ولكن ليس عن ضعف، فإنهم أعزة على الكافرين، فكان في أسلوب التضمين هذا دفع توهم، وبيان لمظاهر تذلل المؤمنين لإخوانهم.

- ومنه قوله تعالى {ومن أهل الكتب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما}، والفعل (أمن) يتعدى ب(على)، كما في قوله يعقوب -عليه السلام-لأبنائه {هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل}، لكنه تعدى هنا بالباء في موضعين، فقال بعض العلماء إن في الآية تضمينا، وتقديره (تأمنه وتعامله بقنطار)، ليشمل الأمانة بالوديعة، والأمانة بالمعاملة، وقال بعضهم (تأمنه وتطالبه)، وذكر المطالبة هنا ليكشف سوء القصد عند هؤلاء، فهي أمانة، وصاحبها قد طالب بها، وقد دل على هذا قوله {إلا ما دمت عليه قائما}، يعني بالمطالبة.
- ومنه قوله تعالى {سأل سائل بعذاب واقع}، والأصل (سأل عن)، وقد يتعدى الفعل (سأل) بنفسه، فيقال (سألتك مالا)، وقد يتعدى بالباء (سألتك بالله)، لكنه هنا تعدى بالباء، والمعنى (سأل سائل مستعجلا) أو (مستهزئا).